ليو تولستوي

Leo Tolstoy

العجوزان

Tow old men

رواية

ترجمة
موسى وهبه

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

العجوزان

تولستوي

ترجمة: موسى وهبه

قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه.

قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. اللّه روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ (يوحنا 4: 19 - 21 و23 و24)

العهد

اتفق العجوزان على الحج إلى أورشليم معًا، وتاقت نفساهما إلى عبادة اللّه في المدينة المقدسة. كان أولهما أفيم تراسيش سيفيليف، وهو فلاح على جانب من الثراء. أما صاحبه فكان أليشع بودروف وهذا لم يكن له من الثروة مثل حظ رفيقه.

كان أفيم معروفًا بين الناس بالاستقامة والجد والحزم، لا يشرب الخمر، ولا يدخن ولا يتعاطى السعوط (النشوق) ولا يذكر أحد من الناس عنه أنه استعمل لغة فظة سوقية، أو لفظًا قبيحًا مستهجنًا. ولعل دماثة أخلاقه كانت سببًا في أن يرتقي منصب العمدة مرتين، أدى فيهما واجبات الوظيفة بأمانة. وبعد أن ترك هذا المنصب، لم يستطع أحد أن يجد في عمله ثغرة يلومه من أجلها.

وفضلًا عن ذلك فقد كان أفيم رب أسرة كبيرة، له ابنان وعدد من الأحفاد أحدهم قد تزوج حديثا. والجميع يعيشون تحت سقف بيته. ورغم كبر سنه فقد كان موفور النشاط، معتدل القامة. ومع أن لحيته كانت طويلة إلا أنها ظلت بعد بلوغه الستين دون أن يتسلل إليها الشعر الأبيض.

أما أليشع فلا يمكنا أن نصفه بالغنى أو الفقر، فقد كان وسطًا بينهما، اشتغل بالنجارة سنوات طويلة، فلما تقدمت به السن آثر أن يستقر في داره، واتجه إلى تربية النحل، التي كانت تدر عليه من الرزق ما يكفي حاجاته. وكان له ابنان كرفيقه أفيم، ولكن أحدهما ترك القرية وذهب يضرب في مناكب الأرض سعيًّا وراء الرزق. أما الثاني فظل إلى جوار أبيه.

كان أليشع يتميز برقة القلب، والميل إلى المرح ولا بأس عنده أن يشرب الخمر أحيانًا، ويتناول السعوط أحيانًا أخرى. كما كان يحب الغناء. ولكنه كان رجلًا مُسالمًا يرتبط بعائلته وجيرانه بعلاقات طيبة. كان أليشع قصير القامة، أسمر البشرة، تنسدل من وجنتيه وذقنه لحية متماوجة، إلا أنه كان - مثل شفيعه وسميه النبي أليشع - أصلع الرأس تمامًا.

كان العجوزان قد تعاهدا على القيام بهذه الرحلة منذ أمد طويل.. بل وأعدا العدة للارتحال معا إلى أورشليم. ومع ذلك فلم يحققا هذا الأمل، فأفيم لم يجد فسحة من الوقت للوفاء بهذا العهد كان على الدوام كثير المشاغل، وكلما انتهى من عمل بدأ عملًا آخر فقد كان عليه في بادئ الأمر أن يعد الترتيبات اللازمة لزواج حفيده، ثم كان لابد له أن ينتظر عودة ابنه الأصغر من الجيش، ولم يكد ينتهي من ذلك حتى بدأ العمل في بناء كوخ جديد...

وفي أحد الأعياد تقابل الرجلان خارج هذا الكوخ، وجلسا على جذع إحدى الأشجار، وكان لابد أن يتطرق حديثهما إلى ذلك العهد الذي اتفقا عليه وقد

استهل أليشع الحديث بقوله: حسنًا، متى يمكنا أن ننجز عهدنا أمام اللّه؟

واكفهر وجه أفيم وهو يجيبه في شئ من الجدية والوقار:

- كان بودي أن نحقق هذا الوعد. ولكن ما الحيلة؟ لابد أن ننتظر. لقد كانت هذه السنة بالنسبة لي عصيبة قاسية عندما بدأت في بناء هذا الكوخ كنت أظن أن البناء لن يجاوز المائة روبل ولكن. تصور لقد صرفت حتى الآن ما يزيد على الثلاثمائة. وما زال في دور البناء لم ينته بعد... لابد أن ننتظر حتى الصيف وفي الصيف إن شاء اللّه، لابد أن نذهب دون تردد. ولكن أليشع أجابه في إصرار: يبدو لي أن قرارنا لا يحتمل التأجيل أكثر من ذلك، بل يجب أن نبدأ رحلتنا في الحال. ولا شك أن الربيع هو أنسب الأوقات للقيام بها.

- لا أُنكر أن الوقت مناسب جدًّا، ولكن ما حيلتي في هذا البناء؟ لا يمكني أن أتركه على هذا الحال.

ونظر إليه أليشع نظرة فاحصة لا تخلو من الاحتجاج ثم قال:

- كأنه لا يوجد من يقوم بهذا العمل بدلًا منك!! إن ابنك يا صديقي يستطيع أن يقوم بالإشراف على استكمال البناء.

- ولكن. كيف؟ لا يمكني أن اعتمد على ابني الأكبر. في بعض الأحيان تميل نفسه إلى الخمر فيشرب أكثر مما ينبغي.

- اسمع يا جاري.. عاجلًا أو آجلًا لابد أن ننتقل من هذا العالم ولابد لهم أن يدبروا أمورهم بأنفسهم.. الآن يمكنك أن تعطي الفرصة لولدك حتى يبدأ في تحصيل بعض الخبرة في الحياة.

وسرح أفيم ببصره في الفضاء، وقد بدا عليه التفكير العميق، ثم أجاب أليشع بقوله: - هذا صحيح.. ولكن.. في المعتاد عندما يبدأ عملًا ما فلا شك أنه يحب أن يرى ثمرة هذا العمل.

ولكن أليشع عاد يقول في شئ من التبرم والضيق:

- يا صديقي.. إننا لا نستطع أن نؤدي كل ما يجب علينا أن نفعله.. اسمع.. منذ عدة أيام كانت النساء في داري قد انهمكن في تنظيف البيت ومسحه استعدادًا لعيد القيامة. كانت جلبة لا مثيل لها هذه تعمل هنا وتلك تلتمس شيئًا هناك.. ولم يتم المطلوب.. وعندئذٍ لم تتمالك الكنة الكبرى من زوجات أبنائي نفسها، فصاحت: الحمد للّه أن العيد لن ينتظر حتى ننتهي نحن من عملنا.. ومهما فعلنا فلن يتم استعدادنا كما ينبغي أن يكون.

واستمع أفيم إلى قصة جاره في صمت ووجوم، وبعد لحظة من السكوت أجاب بقوله: - ولكني أنفقت الكثير من المال على هذا البناء، والرحلة كما

تعلم تحتاج إلى الكثير من النفقات. هل يستطيع المرء أن يبدأ الرحيل وهو خاوي الوفاض لا يملك شروى نقير. لابد لكل واحد منا أن يحمل في جيبه ما لا يقل عن مائة روبل. وهذا ليس بالمبلغ القليل...

وضحك أليشع وهو يقول:

- أيها الرجل العجوز. ما هذا الكلام؟ عندك عشر أضعاف ما أملك، ومع ذلك تتكلم كأنك في حاجة إلى المال. لابد أن تحدد موعد الرحلة، ومع أني لا أملك شيئًا في الوقت الحالي، إلا أني أعتقد أنه في الإمكان أن أجمع ما يكفي حتى ذلك الوقت.

وابتسم أفيم في إشفاق وهو يرنو بنظره إلى صاحبه، ويجيبه بلهجة لا تخلو من السخرية: عجبًا! ما كنت أعلم أنك على هذه الدرجة من الثراء!. وكيف يمكنك أن تحصل على هذا المبلغ؟

- يمكنني أن أجمع شيئًا من هنا وإذا لم يكف ما في المنزل، فقد استقر رأيي أن أبيع عشرة مناحل إلى جاري. إنه يتمنى ذلك وقد سعى كثيرًا لشرائها.

ولكن أفيم أجابه في تحذير:

- ولكن إذا احتشدت مناحلك بالنحل هذا العام فسوف تندم على اتخاذ هذه الخطوة.

ورفع أليشع عينيه في استنكار وهو يقول:

- أندم؟! لا يا جاري العزيز، لم أندم على شئ في حياتي سوى خطاياي. أندم على هذه الأمور؟ لا يوجد يا أخي ما هو أغلى أو أثمن من الروح.. ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه؟!

واستسلم أفيم لمنطق صديقه فقال:

- هذا صحيح.. (ولكنه استدرك قائلًا) ولكن ذلك لا يعني أن نهمل حاجات البيت.

وعقب أليشع على ذلك بجواب قاطع:

- ولكن ما هي النتيجة إن أهملنا أرواحنا؟ إنها أسوأ بكثير.. لقد أخذنا عهدنا أمام اللّه، وعلينا إذًا أن نذهب.. والآن - وأقولها جادًا - لابد أن نذهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بداية الطريق

وهكذا نجح أليشع في اقناع صاحبه بالوفاء بالعهد الذي قطعاه. ففي صباح اليوم التالي وكان أفيم قد قلب وجوه النظر في الموضوع، أقبل إليه قائلًا:

- لقد كنت على حق، فلا بد أن نذهب، والحياة والموت في يدي اللّه. ولا بد لنا أن نقوم بهذه الزيارة المقدسة ونحن مازلنا على قيد الحياة، وفينا جَلَد وقوة.

ولم يكد ينقضي الأسبوع، حتى كان العجوزان قد أخذا أهبة الاستعداد. كان لدى أفيم المبلغ الكافي، فقد احتجز لنفسه مائة روبل، واستودع زوجته مائتين.

واستكمل أليشع استعداده أيضًا. باع إلى جاره عشرة مناحل مهما تكاثر فيها من النحل قبل حلول الصيف وأخذ ثمنًا لها سبعين روبلًا. أما بقية المائة روبل فقد استطاع أن يقتطعها من كل عضو من أفراد أسرته على قدر طاقته حتى لم يترك في أيديهم شيئًا لقد أعطته زوجته كل ما ادخرته من أجل جنازتها، كما سلمت إليه كنته كل ما كان معها.

وقبل بداية الرحلة، أعطى أفيم ابنه الأكبر تعليماته المحددة عن كل شيء، كيف يتم بناء الكوخ وتركيب السقف. لقد فكر في كل شئ وأعطاه الترتيبات التي يجب أن يتبعها في كل منها. أما أليشع فقد نبه على زوجته أن تحرص على الفصل بين جماعات النحل وبين المناحل التي باعها، وأن تتأكد من أن يحصل جارهم على جميع المناحل التي اشتراها دون خِداع أو مراوغة. أما فيما يختص بتدبير شئون المنزل فقد اكتفى بقوله: يمكنكم أن تراعوا عمل الواجب حسب الحاجة، فأنتم سادة البيت وتدركون مصلحتكم وما يجب أن تؤدوه.

هكذا أعد الرجلان عدتهما للرحيل، بعد أن صنع لهما الكعك، وأعدت لهما حقائب سهلة الحمل على الظهور للطريق كما أعدت لهما شرائط الكتان التي اعتاد الفلاحون الروس أن يلفوها على سيقانهم بدلًا من الجوارب. وانتعلا أحذية من الجلد كما أخذا معهما من باب الاحتياط أحذية مضفرة. وقد رافقهما أفراد الأسرتين حتى مشارف القرية حيث تم الوداع وبدأ العجوزان رحلتهما المقدسة.

كانت تبدو على أليشع علامات المرح، فلم يكد يبتعد عن القرية حتى نسي كل ما يتصل بشئون الأسرة، ووجه كل همه أن يدخل البهجة إلى نفس رفيقه، وأن يتحاشى كل كلمة شريرة حتى لا تخرج إحداها من شفتيه حتى يصل إلى غايته ثم يعود إلى بيته في محبة وسلام وفي أثناء الطريق كان أحيانًا يتمتم بينه وبين نفسه بصلوات يرفعها إلى اللّه، وأحيانًا أخرى يسرح بفكره في حياة

هذا القديس أو ذاك بقدر ما تعي ذاكرته. وإذا إلتقى بإنسان في الطريق، أو عرج على مكان ما ليقضي فيه الليل، كان يحاول على قدر طاقته أن يسلك بطريقة مهذبة، وأن يصطبغ حديثه بكلمة اللّه... وهكذا مضى في رحلته راضي النفس قرير العين ولكنه فشل في شيء واحد، فشل في الإقلاع عن عادة استخدام السعوط. لقد ترك وراءه علبة السعوط، إلا أنه كان توافًا إليه، حتى قابله أحد الرجال في الطريق، وأعطاه قبضة من السعوط كان يختلس منها القليل بين الفينة والفينة، وهو يتخلف عن رفيقه حتى لا يراه ولا يدخله في تجربة. وسار أفيم - أيضًا - في نشاط وعزم، لا يرتكب إثمًا، ولا ينطق عبثًا ولكن قلبه كان مثقلًا بالهم كانت أمور البيت تشغل باله وكان يفكر كثيرًا فيما يمكن أن تسير عليه الأمور في داره ويسائل نفسه إن كان قد نسي أن ينصح ابنه بما يجب أن يفعله في هذا الأمر أو ذاك هل سيؤدي ابنه هذه الأمور كما ينبغي؟ وبينما يحث خطاه في المسير، كان يتطلع إلى حقل البطاطس الذي بدأ يظهر، والعربات وهي تنقل السماد، فيعود بالذهن إلى ابنه ويقلب وجوه النظر فيما إذا كان ابنه سيؤدي هذه الأمور كما أخبره أم لا... كثيرًا ما كانت تخالجه الرغبة في العودة، حتى يرشد ابنه كيف يقوم بهذه الأعمال.. أو لعله سيعملها بنفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فراق...

قضى الرجلان خمسة أسابيع على هذا المنوال حتى بليت أحذيتهما، وشعرا بالحاجة إلى شراء أحذية جديدة. كانا قد وصلا إلى حدود روسيا الصغرى، التي يطلقون عليها الآن أوكرانيا.

منذ أن غادرا قريتهما، كان لا بد لهما طوال هذه الفترة، أن يدفعا ثمن الطعام وأجر المبيت ولكنهما عندما وصلا أوكرانيا كان السكان الطيبون يتنافسون على ضيافتهما فيستقبلونهما في أكواخهم، ويقدمون لهما الطعام في سخاء دون أن يتقاضوا أجرًا عن ذلك.. بل وأكثر من ذلك كانوا يدسون في حقائب المسافرين شيئًا من الخبز والكعك يعينهما على مشقة الطريق.

واستطاع العجوزان أن يقطعا حوالي خمسمائة ميل دون أن يتكبدا شيئًا من المال. ولكنهما حينما عبرا حدود أوكرانيا وجدا سكان الإقليم التالي قد أخذت بخناقهم أزمة عاتية، لأن محصول أراضيهم لم يفِ بحاجاتهم. ومع ذلك فقد واصل الفلاحون الكرماء دعوة الرجلين إلى المبيت مجانًا أما الطعام فلم يكن مناص من تقاضى ثمنه. بل لقد اضطرا في بعض الأحيان أن يعرضا ثمنًا طيبًا للخبز ومع ذلك لم يتمكنا من شرائه أو الحصول عليه. أينما توجها كانا يسمعان الشكوى المريرة من ضياع المحصول.. الأغنياء فيهم أخذوا يفقدون كل ما لهم.. بدأوا في عرض ممتلكاتهم للبيع، وعاش متوسطو الحال في إملاق وفقر مدقع. أما الفقراء الذين لم يهاجروا من هذا الإقليم فلم يكن أمامهم سبيل سوى التسول. لقد رُفض بعضهم أن يريقوا ماء وجوههم، فأخلدوا إلى بيوتهم حتى واتاهم الموت جوعًا. في الشتاء لم يجدوا ما يأكلون سوى القشور والنباتات البرية.

في إحدى الليالي التي قضياها في إحدى القرى، اشترى الرجلان خمس عشرة رطلًا من الخبز. وبعد انقضاء الليل نهضا باكرًا جدًّا قبل أن تشرق الشمس وبدأ المسير حتى يقطعا أطول مسافة ممكنة قبل أن تشتد حرارة النهار. وعندما قطعا ما يقرب من ثمانية أميال أتيا إلى مجرى من الماء، فجلسا إلى جواره يستريحان، وانتهزا الفرصة ليملآ إناءيهما بالماء، وغمسا فيه بعض الخبز الجاف وأخذا يأكلان. وبعد أن أكلا وشبعا، أخذا في تغيير شرائط السيقان. وبعد قليل أخرج أليشع علبة السعوط ليتنشق، فهز أفيم رأسه آسفًا وهو يقول:

- كيف لا تستطيع أن تبطل هذه العادة الرديئة؟

ولوح أليشع بيده في يأس قائلًا:

- هذه العادة الشريرة أقوى مني.

وفي النهاية نهض كلاهما واستأنفا المسير. وبعد أن قطعا عدة أميال وصلا إحدى القرى واخترقاها بينما كانت حرارة الشمس قد اشتدت فنال التعب والإعياء من أليشع وأراد أن يستريح بعض الوقت، وأن يطفئ ظمأه بشيء من الشراب إلا أن أفيم رفض أن يتوقف. ولا شك أن أفيم كان أقوى احتمالًا من رفيقه في السفر، كما كان أسرع خطرًا مما جعل أليشع يجد مشقة شديدة في متابعته، وعناءً قاسيًا في مسايرته، فصاح أخيرًا:

- لو استطعت - فقط - أن أحصل على كأس من الشراب..

وأجابه أفيم في حزم وصرامة:

- حسنًا يمكنك أن تأخذ لنفسك كأسًا، أما أنا فلا أريد شيئًا.

ولم يستطع أليشع أن يواصل المسير، فتوقف هنيهة ثم قال:

- يمكنك أن تمضي قدمًا، أما أنا فسأجري إلى ذلك الكوخ الصغير ألتمس شيئًا من الشراب، ثم ألحق بك بعد لحظات قليلة..

فتطلع إليه أفيم مليًا ثم أجابه:

- حسنًا. ولم يرد على ذلك شيئًا ومضى في الطريق وحيدًا لا يلوي على شيء، بينما عرج أليشع إلى الكوخ الذي أشار إليه.

كان كوخًا صغيرًا تكسو جدرانه طبقة من الطين. وكان اللون قاتمًا في الأجزاء السفلى من الجدران أما العليا منها فقد كانت هناك بقايا للطلاء الأبيض، ولكن طبقة الطين قد انتشرت فيها الشقوق. من الواضح أن الطلاء قد عفا عليه الزمن، وقد تساقطت قطع من الطين من أخذ جوانب السقف.. كان على أليشع أن يعبر فناءً واسعًا حتى يصل إلى مدخل الكوخ. ودلف أليشع إلى الفناء حيث رأى مقعدًا من الطين يمتد إلى جوار الجدار. وعلى الأرض بجوار المقعد الطويل كان يرقد رجل نحيل الجسم لم ينبت بعد شعر لحيته، وقد دس قميصه في سرواله كما هي عادة السكان في أوكرانيا... لا شك أن الرجل مستغرق في نوم عميق.... ولا شك أنه كان يلتمس الظل حين نام أما الآن فقد استدارت الشمس وها هي تصب لهيب أشعتها عليه... ولكنه يبدو مستيقظًا، ومع ذلك فهو ما زال راقدًا... تقدم إليه أليشع ودعاه، وطلب منه كأسًا من الشراب... إلا أن الرجل لم يحر جوابًا. وفكر أليشع في نفسه قائلًا:

«إما أن يكون الرجل مريضًا أو خشنًا فظ الطباع».

وواصل أليشع تقدمه نحو الباب ثم طرق طرقًا خفيفًا، ولكنه لم يسمع سوى صوت طفل يبكي ففي الداخل بكاءً عاليًا. فأمسك بحلقة الباب وأخذ يقرع بشدة وهو يصيح:

- هيه.. يا جماعة..

ولكن أحدا لم يجب نداءه. فقرع الباب مرةً أخرى بعصاه وهو يرفع صوته:

- هيه، أيها المسيحيون... يا جماعة المؤمنين...

وتبددت صرخته أدراج الرياح وعاد المكان يُخيِّم عليه الصمت المطبق. وأحس بالضيق ينهش صدره، فصاح ثالثة:

- يا عبيد اللّه..

ولكنه لم يتلق جوابًا...

وأستدار أليشع لكي يرجع من حيث أتى، ولكنه في تلك اللحظة خُيِّل إليه أنه سمع أنينًا خافتًا ينبعث من الجانب الآخر من الباب، وترامى إلى أذنيه خافتًا منهوك القوى...

- يا للّه لا بد أن كارثة ما قد أصابت هؤلاء الناس!! يجدر بي أن أُلقي نظرة في الداخل.

ودفع أليشع الباب، ليدخل الكوخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مغامرة

عندما أمسك أليشع بحلقة الباب، وجد أنه لم يكن محكم الاغلاق فدفعه برفق ودلف إلى الممر الضيق فرأى في مقابله بابًا مفتوحًا يؤدي إلى إحدى الغرف، وإلى يساره فرنًا كبير الحجم، وأمامه على الحائط يستند حامل للأيقونات وقد وضعت منضدة صغيرة أمام الأيقونة، وبجوار المنضدة مقعد خشبي طويل جلست عليه امرأة عجوز أسندت رأسها الأشيب على المنضدة.. وبالقرب منها وقف صبي صغير، هزيل الجسم، ممتقع الوجه أصفره، كأنه قد صب من شمع، وقد انتفخت بطنه انتفاخًا عاليًا لا تخطئه العين...

لا شك أنه كان يطلب من المرأة شيئًا ما، ويطلبه بإلحاح لأنه كان يتشبث بأكمامها ويشدها بإصرار بينما يرتفع صوته الواهن الضعيف يبكي ويسترسل في البكاء.

دخل أليشع وتسمرت قدماه.. كان الهواء في الكوخ فاسدًا، إذ كانت تنبعث منه رائحة كريهة. دار بعينيه في كل أنحاء الكوخ فإلتقت عيناه بامرأة أخرى رقدت على الأرض خلف الفرن وقد أسبلت عينيها، ومن حلقها تخرج حشرجة مخيفة، تمد ساقها حينًا، ثم تعود وتجذبها حينًا آخر ويبدو أنها لم تكن لها قدرة أن تتحكم في هذه الساق فإذا بها تتركها تتهاوى من جانب إلى آخر ولا شك أنها كانت مصدرًا للرائحة النتنة التي اقتحمت أنف أليشع. كان من الواضح أنها لا تستطيع أن تصلح من شأن نفسها، ولم يكن هناك من يهتم بأمرها.. ولكن المرأة العجوز رفعت رأسها بصعوبة، وإلتقت عيناها بالرجل الغريب، ثم قالت في إعياء:

- ماذا تريد؟.. ماذا تطلب أيها الرجل.؟ ليس عندنا أي شيء..

ومع أنها كانت تتحدث بتلك اللهجة المعروفة في أوكرانيا، إلا أن أليشع استطاع أن يتبين كلماتها، فرنا إليها بنظرة وادعة وهو يقول:

- يا خادمة اللّه.. جئت أطلب جرعة من الماء.

وأجابته بخشونة:

- لا يوجد أحد.. لا أحد، ليس لدينا إناء نحضر فيه الماء.. توكل على اللّه.. دعنا في حالنا وامضِ إلى حال سبيلك..

ولكن أليشع لم يخرج، بل عاد يوجه السؤال للعجوز:

- أما يوجد بينكم واحد صحيح الجسم، يستطيع أن يعني بتلك المرأة؟

ولم تكلف العجوز نفسها عناء النظر إليه، بل أجابته في برود:

- لا.. لا أحد.. هناك في الخارج ابني ينتظر الموت، وهنا نحن.. كلنا نموت.

كان الصبي قد كف عن البكاء عندما رأى الغريب، ولكنه بدأ صياحه من جديد، يقطع به حديث العجوز، ويجذبها من أكمامها صارخًا:

- هاتي لقمة يا جدتي.. لقمة واحدة.. أريد أن آكل..

كان أليشع على وشك أن يسأل العجوز من جديد، ولكنه توقف عندما دخل الرجل الذي رآه في الخارج، يترنح في مشيته وهو يعبر الممر نحو داخل الكوخ بينما يستند بيديه على الجدار. ولم تكد خطواته تتجاوز عتبة الباب حتى سقط عند زاوية قريبة منها.. ولم يحاول أن ينهض ثانيةً ابتغاء الوصول إلى المقعد، بل ظل جاثمًا في مكانه لا يكاد يقوى على الكلام. فإذا تكلم انتزعت الألفاظ من بين شفتيه مهلهلة متقطعة، كان يبذل في ذلك جهدًا عنيفًا.. يدفع الكلمات من فمه تكاد تخرج معها أنفاسه اللاهثة.. وفي صبر وطول أناة استمع إليه أليشع، وهو يلتقط أنفاسه من كلمة إلى أخرى قائلًا:

- لقد أدركني المرض.. والمجاعة..

ثم أشار نحو الصبي، وارتفع نشيجه الباهت وهو ينتحب قائلًا:

- انظر.. إنه يموت.. من الجوع.

لم يكد يسمع أليشع هذا الأنين، حتى طرح حقيبته من على ظهره، ونفض سيورها من ذراعيه ثم وضعها على الأرض، ورفعها على المقعد وتحركت أصابعه في سرعة ومهارة تحل أربطتها وتجوس في ثناياها ليخرج رغيفًا من الخبز اقتطع منه جزءًا لا بأس به، ومد يده به إلى الرجل ولكن هذا رفض أن يأخذ شيئًا من الخبز، بل أشار بيده إلى الصبي الصغير، وإلى فتاة صغيرة كانت تزحف على بطنها بجوار الفرن، وكأنه يقول:

- اعط الخبز للصغيرين.

ولم يجد أليشع مندوحة من الطاعة، فمد يده بالخبز نحو الصبي، الذي ما كاد يشم رائحة الخبز حتى مد ذراعيه في لهفة وأمسك قطعة الخبز بكلتى يديه، وأخذ يقضم في نهم حتى اختفت أنفه الصغير في ثنايا الخبز.. وأقبلت الفتاة من وراء الفرن، عيناها لا تفارقان الخبز في يد أليشع حتى أعطاها نصيبها منه. وبعد ذلك كسر أليشع جزءًا آخر أعطاه للمرأة العجوز، التي أخذت تمضغ بصوت مسموع وهي تقول:

- يا ليت أحدًا يستطيع أن يخرج بعض الماء.. لقد جفت حلوقهم.. حاولت بالأمس أن أحضر بعض الماء، أو لعلني حاولت اليوم ذلك.. لا أذكر.. المهم لقد

وقعت ولم أستطع أن أتقدم خطوة أخرى.. وربما ظل الدلو في مكانه، إلّا إذا كان أحدٌ قد أخذه..

وسأل أليشع عن مكان البئر، وأطلعته العجوز على موقعه، فذهب ووجد الدلو في مكانه، فملأه وعاد ليعطيهم جميعًا حتى شربوا.. وهكذا استطاع الصغيران مع المرأة العجوز أن يتناولوا المزيد من الخبز والماء. أما الرجل فقد رفض أن يأكل قائلًا:

- لا أستطيع أن آكل شيئًا..

طوال هذا الوقت، كانت الزوجة الشابة ما زالت غائبة عن وعيها، ولكنها تتقلب من جنب إلى آخر بلا انقطاع وفي النهاية مضى أليشع إلى المتجر الوحيد في القرية. واشترى بعضًا من التبغ والملح، وشيئًا من الدقيق والزيت.. ثم وجد فأسا صغيرة قطع بها بعض الخشب وأوقد النار. فأقبلت إليه الفتاة الصغيرة وأخذت تقدم له ما تستطيع من معونة، فصنع شيئًا من المرق وغلاه، وقدم للأسرة الجائعة ما يسد رمقهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المجاعة

أكل الرجل قليلًا، وأصابت العجوز أيضًا شيئًا يسيرًا من الطعام، أما الصبي والفتاة فقد إلتهما طعامهما في نهم، ولعقا الطبق ولم يتركاه حتى صار نظيفًا تمامًا، ثم انكمشا ورقدا متلاصقين وقد أخذ كل منهما برقبة الآخر وران الكرى على جفونهما فاستسلما إلى نوم عميق.

وعندئذٍ بدأ الرجل والمرأة العجوز يرويان لأليشع كيف انحدر بهم الحال إلى هذا المآل. بدأت العجوز قصتها بقولها:

- كنا نعاني الفقر من قبل، ولكن عندما ساء المحصول، جمعنا منه بالكاد ما يكفينا حتى الخريف.. مضى الخريف واستهلكنا كل ما لنا، ولم يكن لنا مناص من أن نلتمس من الجيران، وأن نطلب معونة غير الجيران، على قدر ما نستطيع. في بداية الأمر أعطونا ما نحتاج إليه، ثم بدأوا يغلون أيديهم عنا!.. ومع ذلك فقد أبدى البعض استعدادهم لمساعدتنا، ولكن هؤلاء - للأسف - كانوا لا يملكون ما يمكنهم أن يقدموه.. وكنا نخجل من السؤال.. وغرقنا في الديون. استَّدنا كل شيء، المال والدقيق والخبز..

وقطع الرجل حديث العجوز وهو يقول:

- ذهبت أبحث عن عمل أرتزق منه، فلم أجد. في كل مكان رأيت الناس - مثلي - يعرضون أنفسهم للعمل حتى يحصلوا على ما يملأ بطونهم فقط. وفي بعض الأحيان قد يحصل المرء على عمل مؤقت قصير الأجل قد يمتد إلى نهار كامل، ثم يتعطل يومين يبحث فيهما عن عمل بلا جدوى.. وعندئذٍ مضت العجوز ومعها الفتاة تتسولان بعيدًا، ولكنهما كانا يحصلان على النذر اليسير.. إن الخبز قليلٌ نادر!! ومع ذلك فقد حاولنا أن نوزع الخبز على جمعينا، حتى نُبقي على حياتنا، نأكل معًا ونربط البطون معًا، وكلنا رجاء أن نقوى على هذا الصراع المرير حتى المحصول المقبل.. ولكن.. عند الربيع رفض الناس رفضًا باتًا أن يقدموا لنا شيئًا. ثم داهمنا المرض وساءت حالنا أكثر فأكثر فلم نجد ما نتبلغ به طول اليوم. ولم يكن بد أن نعيش على الطوى يومين... بدأنا نأكل الحشائش، وسواء كانت الحشائش أو غيرها هي السبب في ما أصاب زوجتي من علة، فلست أدري. لم تستطع أن تقف على قدميها، ولم تكن بي بقية من قوة، ولم يكن لنا ما يمدنا بأسباب الحياة أو الشفاء.

وعادت العجوز تتمم القصة بقولها:

- وأخذت أناضل - وحيدة - فترة من الزمن.. وفي النهاية انهارت قواي أيضًا فقد كنت أفتقر إلى الطعام وغدوت في ضعف شديد.. أما الفتاة فقد ضمر

جسمها، ونخر الإعياء عظامها. حاولت أن أغريها حتى تذهب إلى الجيران ولكنها أبت أن تترك الكوخ بل زحفت إلى ركن الكوخ وانزوت قابعةً هناك..

بالأمس الأول، أتت إلينا إحدى الجارات تتفقدنا، ولكنها ما إن رأت ما نحن نعانيه من جوع ومرض حتى أدارت ظهرها ومضت.. لقد كان لها ما يكفيها من الشقاء والعناء، لم يجد زوجها مناصًا من الهجرة إلى حيث لا تعلم، أما هي فلم يكن لديها ما تطعم به صِغارها.. وهكذا رقدنا كلنا ننتظر الموت..

أصغى أليشع لكل كلمة، وأرهف أذنيه للأنين الذي تسلل بين الكلمات، ووصلت التيهدات إلى أعماق قلبه ليتردد صداها في نفسه لم تكد تنتهي القصة حتى كان قد استقر على قرار حازم، لقد أقلع عن فكرة اللحاق بزميله، وقضى الليل كله معهم وعندما أشرق الصباح نهض من فراشه، وأخذ يقوم بأعمال البيت، كما لو كان البيت بيته هو. بمعونة العجوز، عجن الدقيق ثم تركه حتى اختمر، وأوقد النار.. ثم أخذ الفتاة الصغيرة واصطحبها إلى أحد البيوت المجاورة ليقترض الأدوات الضرورية التي لا غناء عنها، لأن الكوخ كان قد تجرد تمامًا من كل شئ.. من أجل الخبز اضطروا إلى بيع أواني الطهي والملابس وكل شيء..

وهكذا أخذ أليشع يعد الضروريات، صنع بعضها بنفسه واشترى البعض الآخر.. كان الوقت يمضي وهو لا يشعر، فقد قضى معهم يومًا ثانيًا ثم ثالثًا حتى بدأ الصبي يسترد شيئًا من قواه. وكلما رأى الصبي أليشع جالسًا كان يزحف إليه ويلتصق به ثم يدفن رأسه الصغير في صدره... وبدأت تتورد وجنتا الصبية، وتلتمع عيناها وتتابعه أينما ذهب تساعده في كل عمل، وكلما انشغل عنها تناديه: «بابا.. بابا..»

وأحست العجوز دبيب القوة والعافية يسري في أوصالها، واستطاعت أن تبارح الكوخ لكي تفتقد هذه الجارة أو تلك.. وفي هذه الأثناء أيضًا تقدمت صحة الرجل، وواتته القوة على النهوض والتمشي في أرجاء الكوخ وهو يستند بيده على الجدار. لم يبق سوى الزوجة وحدها، لم تستطع أن تقف على قدميها، ولكن - حتى هذه - استردت وعيها في اليوم الثالث، وفتحت فمها تطلب الطعام.

وفكر أليشع في نفسه:

«حسنًا.. لم أكن أتوقع أن أُضيِّع كل هذا الوقت في الطريق.. على أي حال، لا بد لي أن أستأنف الرحيل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الرحيل

في اليوم الرابع كانت الاحتفالات الدينية ستجري في الكنائس بالعيد الذي يعقب صوم الرسل في الصيف. وقد راودت أليشع هذه الفكرة: «يحسن أن أبقى مع هذه الجماعة وأفطر معهم.. أقوم الآن وأذهب لأشتري بعض الحاجات لنحتفل معًا بالعيد، حتى إذا جاء مساء الغد أستأنف رحلتي».

وهكذا مضى أليشع إلى القرية، وابتاع شيئًا من اللبن ودقيق القمح وبعض الأدام... ولما رجع ساعد العجوز في أعمال الطهي، حتى تخبز الدقيق استعدادًا للغد.

وفي يوم العيد، مضى أليشع إلى الكنيسة، وعاد لكي يتناول الإفطار مع أصدقائه الجدد في الكوخ. في هذا اليوم استطاعت الزوجة أن تنهض من مرقدها وتتجول قليلًا في الكوخ. أما الزوج فقد استهل يومه بحلاقة ذقنه، ثم لبس قميصًا نظيفًا كانت العجوز قد غسلته، ثم توجه إلى أحد الفلاحين الأثرياء يستثير فيه العطف والرحمة لأنه كان قد أرتهن لديه أرضه ومرعاه. ذهب يلتمس منه أن يسمح له باستغلال أرضه ومرعاه حتى المحصول الجديد.. وعند المساء عاد الرجل إلى الكوخ محزون القلب، ولم يكد يسمع سؤالًا عما فعل حتى انخرط في البكاء لأن الفلاح الثري لم تلن له قناة، أجابه في لهجة قاسية لا تلخو من إهانة: «هاتِ ما عليك من مالي..»

ويبدو أن هذا الموقف قد أثار عدة تساؤلات في ذهن أليشع. كيف يمكنهم الآن أن يعيشوا؟ سيذهب بقية الفلاحين لزراعة البرسيم أما هؤلاء فلن يستطيعوا أن يجمعوا الدريس، لأن مرعاهم مرهون. سوف ينضج الشعير ويجمع الناس إلى مخازنهم - وما أجمل المحصول هذا العام!! - ولكن أصحابنا هؤلاء لا أمل لهم في شيء لأن الأفدنة الثلاث التي يمتلكونها صارت رهينة في يدي الفلاح الثري.. وإذا مضيت وتركتهم، فماذا يكون المصير؟.. ينحدرون ثانيةً إلى الحالة التي وجدتهم عليها قبلًا..

وأخذت الأفكار تتنازع ذهن أليشع، وقرر أخيرًا أن يمضي هذه الليلة أيضًا معهم، وأن يؤجل رحيله حتى الغد.. وذهب إلى فناء الكوخ لكي ينام..

ردد صلواته ثم استلقى ينتظر أن يغلبه النعاس ولكن النوم لم يراود أجفانه، تارة يرى أنه لا بد له أن يرحل توًا لأنه تخلف وقتًا طويلًا كما أنفق الكثير من المال، وتارةً أخرى يذوب قلبه أسى وحزنًا من أجل هؤلاء المساكين ويردد بينه وبين نفسه: «يبدو أن هذا الموضوع لن ينتهي.. في البداية كان هدفي أن أحضر لهم بعض الماء، وأعطي كلًّا منهم كسرة من الخبز.. ولكن انظر.. كيف تطورت الأمور.. والآن أمامي مشكلة افتداء المرعى والحقل.. وإذا فعلت ذلك

فلا بد أن أشتري لهم بقرة. ولا بد للرجل من حصان لكي يحمل على ظهره حزم القمح أو الشعير. لقد وضعت نفسك - أيها الأخ أليشع - في مأزق لا مخرج لك منه، وانحصرت في عقدة لا فكاك لك منها. وقد انصرم حبل أجلك وأنت الخاسر إذا قدمت حساب وكالتك!».

ثم نهض أليشع، وجذب من تحت رأسه معطفه الذي كان يستخدمه كوسادة، ثم نشره وأخذ يزج بأصابعه في جيوبه حتى انتشل من أحدها علبة السعوط. وأخذ قبضة بين أصبعيه قربها إلى أنفه، ظنًا منه أن السعوط قد يعينه على جلاء أفكاره. ولكن بلا جدوى. لقد ظل يفكر ويفكر، دون أن يصل إلى نتيجة ما يهدأ لها فكره، يجب أن يرحل ولكن الرحمة كانت تقف له بالمرصاد تحول دون خروجه.. لم يعرف ماذا يفعل. وطوى المعطف ثانيةً، ووضعه تحت رأسه وظل راقدًا على هذا الحال، لا يغمض له جفن حتى سمع صياح الديكة.. ولكن التعب كان قد أخذ منه كل مأخذ، وتثقلت عيناه بالنوم.. وفجأةً رأى شخصًا يقترب منه ليوقظه، قد ارتدى ملابس السفر، يحمل كيسًا على ظهره ويتوكأ على عصاه. ثم انفتح باب الكوخ فتحة صغيرة، تسمح له بالجهد أن ينفذ منها. وقد كان على وشك الخروج عندما انحشر الكيس في حافة السور، فحاول أن يخلصه بيد أنه اكتشف أن رباط ساقه قد اشتبك في شيء ما من الناحية الأخرى، وبدأ يسقط جذب الكيس بشدة إلا أنه تبين أنه لم ينحشر في السور حقًّا، بل كانت الفتاة الصغيرة هي التي تمسك به، بينما تسيل الدموع من عينيها وهي تصيح: «الخبز.. يا بابا.. الخبز».

وحانت منه إلتفاتة نحو قدميه، وإذا هناك الصبي الصغير يتعلق برباط الساق اليسرى، ويتشبث به بينما صاحب الكوخ والمرأة العجوز يتطلعان إليه من النافذة. وهبَّ أليشع من نومه، وتلفت حوله متسائلًا ما عسى أن يكون هذا، ثم رفع عينيه شاحصًا إلى السماء وهو يتمتم قائلًا: «هل أذهب أبحث عن اللّه في البر وعبر البحر، بينما أفتقده في داخل نفسي فلا أجده. رباه!! ماذا أفعل؟».

ورقد أليشع ثانيةً، وغط في نوم عميق حتى مطلع النهار. وقام بهمة ونشاط وذهب على عجل إلى ذلك الفلاح الثري حيث دفع فدية الحقل والمرعى واسترد الأرض لصاحبها. ثم عرج إلى السوق وابتاع منجلًا بدل المنجل الذي اضطروا إلى بيعه، وعاد به إلى المنزل. أرسل الرجل لحصاد البرسيم، أما هو فذهب إلى القرية حيث ترامى إلى سمعه أن حصانًا وعربة معروضان للبيع عند الحانة فلم يتردد في الذهاب وعقد الصفقة مع المالك. واشترى جوالًا من الدقيق وضعه على العربة ثم بدأ البحث عن بقرة..

وبينما كان في طريق عودته، صادف امرأتين عرف من لهجتهما أنهما من بنات أوكرانيا، واستطاع أن يتبين ما تقولان، كانت إحداهما تحكي للأخرى

فتقول: «في بادئ الأمر، يبدو أنهم لم يتعرفوا على شخصه، فظنوه إنسانًا عاديًا أتى يلتمس منهم جرعة من الماء، ولكنه بعد ذلك بقي معهم.. تصوري يا أختي الأشياء التي اشتراها لهم.. ماذا تظنين؟ يقولون أنه اشترى لهم حصانًا وعربة.. لقد اشتراهما هذا الصباح عند الحانة.. هل يوجد بين الناس رجال على شاكلة هذا الرجل.. ما رأيكِ؟ ألا يجدر بنا أن نمر بكوخهم لنلقي نظرة على هذا الغريب؟!».

ولما سمع أليشع هذا الحديث، شعر بشيء من الضيق يلم بصدره.. لم يشعر بلذة أو سرور عندما أدرك أن الناس يمدحون عمله.. توقف عن البحث عن البقرة، وعاد إلى الحانة مسرعًا حيث دفع ثمن الحصان. وبعد أن حل وثاقه، اقتاده إلى الكوخ، ثم اتجه إلى الخارج. لقد عقدت الدهشة ألسنة سكان الكوخ، وهم ينظرون إلى الحصان ولكن أحدًا لم يجرؤ أن يسأله عما إذا كان هذا الحصان من أجلهم، ولكن الرجل صاحب الكوخ أسرع إلى الباب يفتحه وهو يقول:

- من أين أتيت بهذا الحصان، يا جدي العزيز؟

ونظر إليه أليشع نظرة فاحصة ثم قال:

- ولماذا تسأل؟ لقد اشتريته، وجدته رخيص الثمن.. اذهب واقطع بعض البرسيم وضعه في المزود حتى يأكل أثناء الليل.. وخذ احمل هذا الكيس إلى الداخل.

وحل الرجل وثاق الحصان، وحمل الكيس ووضعه في البيدر، ثم مضى وجمع بعض البرسيم ووضعه في المزود. ثم رقد الجميع استعدادًا للنوم، وخرج أليشع إلى الفناء واستلقى بالقرب من الباب.

وفي هذه الليلة اصطحب حقيبته معه، وعندما استغرق الجميع في النوم، نهض أليشع وأحكم رباط الحقيبة، وثبتها على ظهره، ثم أحكم الأربطة على ساقيه، ولبس حذاءه ومعطفه، ثم انطلق في طريقه لا يلوي على شيء، يقتفي أثر زميله الذي سبقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العودة

وعندما سلخ أليشع من الطريق ما يربو على ثلاثة أميال بدأ ينبلج ضوء النهار، فجلس في ظل إحدى الأشجار، وفتح حقيبته وبدأ يحصي ما بقي معه من نقود، فوجد أنه لا يملك سوى 27 روبلًا و20 كوبيك. لابد أن يتدبر موقفه، ويقلب وجوه النظر فيما يجب أن يفعل:

«حسنًا.. لا فائدة في محاولة عبور البحر بهذا المبلغ الضئيل.. والتسول من أجل السفر أسوأ من عدم السفر كليةً.. سيصل صديقي أفيم إلى أورشليم بدوني، وربما وضع شمعة باسمي في الهياكل المقدسة. أما أنا..؟! أخشى ما أخشاه ألا أتمكن من الوفاء بهذا العهد في هذه الحياة. ألا تنذر خير من أن تنذر ولا تفي. خطية. ولكن الحمد للّه أني قدمت هذا العهد إلى سيد رحوم.. يغفر آثام الخطاة».

ونهض أليشع ثانيةً، وهزَّ حقيبته حتى تثبت على ظهره ثم قفل راجعًا. وقد حرص على ألا يراه أحد، فغير طريقه، وتجنب طريق القرية وجد في السير إلى بلدته. كان الطريق وعرًا شاقًا، أو هكذا بدا له عندما بدأ الرحلة مع أفيم، ولم يستطع اللحاق به أو مجاراته في سرعة المسير أما الآن فكان يشعر أن معونة اللّه تصاحبه، فأخذ يسير في همة ونشاط، قلما يحس بالتعب بدأ مسيرته كأنها ملهاة أطفال، مضى قُدمًا يهز عصاه في يده، يقطع في اليوم أربعين أو خمسين ميلًا.

عندما وصل أليشع إلى بيته، كان الحصاد قد انتهى. وانتاب أفراد الأسرة جميعًا شعورًا غامرًا بالفرح والسرور بعودته، وإلتفوا حوله يسألونه عما حدث؟ وكيف تخلف في الطريق؟ ولماذا رجع دون أن يصل إلى أورشليم؟ ولكن أليشع لم يفصح عن شيء مما حدث، بل اكتفى بقوله:

«لم تشأ إرادة اللّه أن أذهب إلى هناك. لقد فقدت مالي في الطريق، وتخلفت عن مرافقة زميلي. أخطأت سامحوني من أجل اللّه..».

وأخرج أليشع ما تبقى معه من نقود وأعطاها إلى زوجته العجوز ثم بدأ يستفسر عن بعض شئون الدار، كل شيء كان يجري كما يحب على خير منوال لم يهمل شيء من العمل، والجميع كانوا يعيشون في رابطة حلوة من المحبة والسلام.

وترامت أنباء عودته إلى أسرة أفيم في نفس اليوم، وأقبلوا يتساءلون عن أخبار زميله العجوز، وجواب أليشع لا يتغير:

«أفيم سريع المشي، وقد افترقنا قبل عيد مار بطرس بثلاثة أيام. كنت أريد اللحاق به ثانيةً، ولكن الظروف لم تكن مواتية. ولما فقدت مالي، وعدمت

الوسيلة للمضي في الرحلة، آثرت العودة..».

وقد دهش الناس كيف يتصرف مثل هذا الرجل العاقل على هذه الصورة التي تدل على الغباء.. لم يحسب النفقة!!

لقد بدأ رحلته ولكنه لم يصل إلى غايته.. لأنه أسرف وبدد ماله. وهكذا لم تخل قصة أليشع من التعليقات المرة، وظلت تلوكها الألسنة حينًا من الزمن، ثم بدأ ستار النسيان ينسدل عليها، وأخذ الناس ينسون كل ما يتصل بها حتى أليشع نفسه.. نسي كل شيء تمامًا، وعاد إلى عمله كما كان شأنه، وأقبل عليه، يساعده ابنه في قطع الأخشاب وجمعها لوقود الشتاء، وساعد النساء في درس القمح، ثم أصلح من طلاء المنزل من الخارج، ووضع النحل تحت غطاء خاص وسلم جاره المناحل العشر التي باعه إياها في الربيع، مع جميع الخلايا التي أنتجتها.. وقد حاولت زوجته أن تنكر الخلايا التي أنتجتها هذه المناحل، إلا أن أليشع - بخبرته الطويلة - كان يعرف جيدًا أي المناحل أنتج خلايا وأيها لم ينتج وبدلًا من أن يعطي جاره عشرة خلايا سلمه سبعة عشر خلية ولما أتم جميع الاستعدادات لموسم الشتاء، أرسل ابنه ليبحث عن عمل، بينما انكب هو على عمله في صفر الأحذية، وحفر كتل الخشب حتى تصلح للمناحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفيق السفر

في ذلك اليوم، الذي قضاه أليشع بجوار المرضى في الكوخ، ظل أفيم ينتظر عودته. ولم يكن قد قطع شوطًا بعيدًا عندما جلس ينتظر وينتظر حتى طال به الانتظار وأليشع لم يعد. وأخذ يحدق ببصره في الطريق وفي المارة حتى كلت عيناه.. وأخذت الشمس تغيب والظلام يبسط أجنحته الكالحة، وليس هناك أثر ما يدل على أليشع على مدى البصر.

وانتاب أفيم الشك حتى قال في نفسه:

«لعله مرَ بي دون أن أراه، أو لعل أحدهم تطوع باصطحابه في عربته، ومضت عربته بي بينما أخذتني سنة من النوم فلم أرهم ولم يشاهداني. ولكن كيف يمكن أن يتجاوزني فلا يراني ولا يبحث عني؟ في هذه المنطقة العالية، التي تتيح للمرء أن يرى على بعد.. هل أعود؟ ولكن من يدريني؟ ربما سبقني وفي هذه الحالة لا يمكن أن نلتقي على الإطلاق.. فيزداد الموقف سوءًا.. الأفضل أن أواصل السير، وربما تلاقينا عندما تحين ساعة النوم، فعند المبيت لا شك في فرص اللقاء.

وبلغ أفيم إحدى القرى، وأوصى الحارس الليلي، أن يوقظه إذا رأى كهلًا تنطبق عليه أوصاف أليشع الخاصة، فيحضره إليه في المسكن الذي نزل به.. ولكن أليشع لم يأتِ في تلك الليلة.. ومضى أفيم في طريقه، يسأل كل من يقابله عما إذا كان قد صادف رجلًا عجوزًا صغير الجسم أصلع الرأس. ولكن أحدًا لم يدله على مثل هذا المسافر. أخذ منه العجب كل مأخذ، ولكنه واصل المسير ممنيًا نفسه بأنه لا بد أن يتلاقيا في أوديسا أو على ظهر المركب.. ومع مرور الأيام تناقص فضوله حتى أنه لم يحاول أن يعير الأمر إلتفاتًا.

وفي أثناء الطريق، قابل أحد الحجاج يرتدي ثوبًا فضفاضًا، وقد استرسل شعر رأسه ووضع على رأسه عمامة تشبه عمائم الكهنة. كان هذا الحاج قد ذهب إلى جبل أثوس، وهو الآن في طريقه إلى أورشليم للمرة الثانية. وبعد أن جمعهما اللقاء في إحدى الليالي لم يفترق الرجلان بعد ذلك.

وصل المسافران إلى أوديسا، وكان عليهما أن ينتظرا ثلاثة أيام قبل أن يعتليا ظهر المركب الذي سيقلهما عبر البحر. وقد ازدحمت المدينة بالحجاج الذين أقبلوا من جهات مختلفة. وخطر في بال أفيم أن يسأل من جديد عن صديقه أليشع ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح. استخرج أفيم لنفسه جواز السفر الذي كلفه خمسة روبلات كما دفع 40 روبلًا ثمنًا لتذكرة الذهاب والعودة من أورشليم واشترى من المئونة ما يكفي رحلته، من الخبز والرنجة.

وأخذ الحاج المرافق لأفيم يشرح له كيف يستطيع أن يركب السفينة دون أن يدفع الأجر، ولكن أفيم رفض أن يصغي لهذه النصائح وأجابه في حزم قاطع:

«لا.. لقد أتيت مستعدًا للدفع.. ولهذا فسوف أدفع الأجر».

وأتت السفينة، وكدست فوقها البضائع ثم ركب الحجاج بما فيهم أفيم ورفيقه الجديد، ورفعت المراسي وأقلعت السفينة إلى عرض البحر.. ولم تظهر أية بادرة لأليشع..

أبحرت السفينة طيلة النهار، في جو هادئ ممتع.. ولكن عندما بدأ النهار يميل أخذت الرياح تهب وتشتد، وبدأت الأمطار تسقط ثم تنهمر، وأخذت السفينة تميل يمينًا وشمالًا يغمرها ماء المطر. وتسلل الخوف إلى قلوب الركاب، ثم بدأ الذعر يسيطر في عنف وقسوة، فولولت النساء وارتفع صراخهن، وأخذ بعض الرجال - لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم - يركضون هنا وهناك يبحثون لأنفسهم عن ملجأ يحتمون به. كان أفيم أيضًا قد تملكه الخوف ولكنه احتفظ برباطة جأشه أمام الآخرين فظل في مكانه على ظهر السفينة إلى جوار بعض الشيوخ الذين قدموا من ثاميوف. جلسوا جميعًا طيلة هذه الليلة يُخيِّم عليهم صمت مطبق. وطوال النهار التالي لم يغيروا من جلستهم وقد تشبثوا بأكياسهم حتى بدأت حدة الريح تهدأ في اليوم الثالث. وفي اليوم الخامس ألقت المركب مراسيها عند القسطنطينية حيث نزل بعض الحجاج لزيارة كنيستها المشهورة "آيا صوفيا" التي آلت - فيما بعد - للأتراك ولكن أفيم ظل في السفينة لا يبارحها، ولم يشترِ سوى بعض الخبز الأبيض وبعد أن ظلت السفينة هناك أربعًا وعشرين ساعة، أقلعت ثانيةً نحو البحر ثم وقفت في أزمير ثم الاسكندرونة وفي نهاية المطاف رست في ميناء يافا حيث نزل الحجاج. ومن هناك كان عليهم أن يقطعوا ما ينوف على الأربعين ميلًا حيث يصلوا المدينة المقدسة أورشليم. لقد راود الخوف قلوب الحجاج ثانيةً وهم ينزلون إلى الشاطئ فقد كانت السفينة عالية كالبناء الشامخ وهم يهبطون من ظهرها إلى القوارب التي كانت تتأرجح بشكل ينذر بالخطر ولا يوحي بالطمأنينة. قد يفقد المرء توازنه ويسقط في البحر.. وبالفعل قد أصيب رجلان بالبلل.. ولكن - في النهاية - وصل جميع الركاب إلى الميناء سالمين.

وبدأ الحجاج رحلتهم على الأقدام، وفي اليوم الثالث عند الظهيرة وصلوا مشارف المدينة ووقفوا هناك في دار الضيافة الروسية، حيث تم اعتماد جوازات السفر. وبعد تناول طعام الغذاء، زار أفيم الأماكن المقدسة في صحبة رفيقه. وقبل أن يحل دورهم للدخول إلى القبر المقدس، ذهبا إلى البطريركية حيث احتشدت جموع الحجاج، وقد انفصلت النساء عن الرجال وطلب إليهم أن يجلسوا في شكل دائرة عراة الأقدام. وأقبل أحد الآباء الرهبان يحمل منشفة في يده لكي يغسل أرجلهم. وبدأ فعلًا بغسل أقدامهم

وبمسحها ثم بتقبيلها. لقد صنع هذا مع كل منهم.. مع أفيم أيضًا.. وعندما حل موعد صلاة النوم وقف ناهضًا يتمتم صلاته، وقد تكرر هذا أيضًا في صلاة باكر، تقدم بعدها يضيء الشموع أمام الهيكل ويضع ورقة صغيرة كتب فيها أسماء والديه حتى يكون لهما نصيب في بركة صلوات القداس.

وفي البطريركية وزع على الحجاج الطعام والنبيذ. وفي صباح اليوم التالي ذهبوا لزيارة الكهف الذي كانت تعيش فيه القديسة ماريا المصرية، بعد أن عقدت عزمها على حياة التوبة والندم.. وهناك أيضًا وضعوا الشموع ورفعوا الصلوات، ومن هناك ذهبوا إلى دير إبراهيم وتأملوا المكان الذي أزمع إبراهيم أن يقدم فيه ابنه اسحق محرقةً أمام اللّه... وقاما - بعد ذلك - بزيارة المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع لمريم المجدلية، كما طافوا بكنيسة القديس يعقوب أخي الرب.

وأمسك الحاج بيد أفيم وجال به في كل هذه الجهات، يرشده إلى ما يجب أن يفعله أو يدفعه في كل منها.. وعند منتصف النهار رجعا إلى دار الضيافة حيث تناولا طعام الغذاء. وعندما بدأ الرجلان أهبتهما للنوم حتى يأخذا قسطًا من الراحة، أخذ الحاج يصيح، ويفتش جيوبه، ويقلب ملابسه رأسًا على عقب وهو يردد:

«لقد سُرقت حافظة نقودي، كان فيها 23 روبلًا، ورقتان من ذوات العشرة روبلات، والباقي من قطع العملة الصغيرة..».

وأخذ يتنهد، ويبكي ماله الضائع، ولكنه لما لم يجد في ذلك نفعًا أو جدوى كفَ عن الصياح والضجيج، وأخلد إلى السكون ثم اضطجع لكي ينام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجارب الفكر

حاول أفيم أن ينام، ولكن صراعًا عنيفًا كان يدور في ذهنه، ولا يسمح لعينيه أن تستسلما للنوم. لقد ألح على فكره هذا الخاطر: «إن أحدًا لم يسرق شيئًا من هذا الحاج!.. بل ولا أعتقد أنه كان يحمل معه أي مبلغ من المال. لم أره يدفع درهمًا في أي مكان ذهبنا إليه، مع أنه كان يحثني على الدفع والبذل والسخاء؟!. بل أكثر من هذا أنه اقترض مني في إحدى المرات روبلًا. ولم يرده لي..».

ولم يكد يمر هذا الخاطر في رأسه، حتى أخذ يلوم نفسه بعنف: «أي حق لي أن أكون ديانًا للآخرين؟ هذه خطية. لن أفكر في هذا الموضوع بعد الآن».

ولكن عندما بدأت الأفكار تراود ذهنه، بدأت تلف وتدور من جديد حول هذا الحاج. يبدو أنه شديد الحرص على المال. عندما صاح الحاج يعلن أن حافظة نقوده قد سرقت، اندهش جدًّا وبدا له هذا القول غريبًا غير محتمل الوقوع. لا شك أنه لا يملك شيئًا من المال على الإطلاق. أكاد أجزم أن قصته كلها مختلقة، ولا أساس لها من الصحة.

وقبل أن يحل المساء، استيقظ الرجلان واتجها صوب كنيسة القيامة العظيمة، حيث يوجد القبر المقدس، وقد عقدا العزم على حضور قداس نصف الليل. ظل الحاج يلازم أفيم، لا يفارقه في غدوه ورواحه. وعندما وصلا إلى الكنيسة وجداها قد اكتظت بالحجاج.. بعضهم من الروس والبعض الآخر من جنسيات متباينة، يونانيين وأرمن وأتراك وسوريين وغيرهم..

عبر أفيم الأبواب المقدسة مع الجماهير الحاشدة، وقادهم أحد الرهبان وأجازهم مناطق حراسة الأتراك، ووصل بهم إلى المكان الذي أنزلوا فيه المخلص من على الصليب وكفنوه بالأطياب والحنوط.. وهناك كانت أعداد كبيرة من الشموع المضاءة، وقد صفت على تسع من الحوامل الكبيرة. وبينما كان الراهب يقودهم كان يشرح لهم ويصف كل الأحداث التي مرت بهذا المكان أو ذاك. ووقف أفيم برهة لكي يوقد إحدى الشموع رهبةً وإجلالًا. وبعد ذلك قادهما الراهب إلى اليمين، وصعد درجات السلم الذي يؤدي إلى الجلجثة، حيث كان الصليب موضوعًا.. وتحرك قلب أفيم في عنف ورفع صلاة حارة إلى اللّه. ثم أخذه بعد ذلك لكي يشاهد الشقوق التي أصابت الأرض وامتدت إلى أعماقها، ثم المكان الذي سمرت فيه يدا المسيح وقدماه على خشبة الصليب، ثم قبر آدم حيث سقطت بضع قطرات من دم المخلص على عظام آدم المسكين.. وبعد ذلك رأى الحجر الذي جلس عليه المسيح عندما وضعوا إكليل الشوك على رأسه، وعلى قرب منه العمود الذي قيدوه إليه عندما جلدوه... ثم رأى أفيم الحجر الذي انطبعت عليه آثار قدمي الرب..

وكان الرفاق على وشك أن ينتقلوا إلى أماكن أخرى لولا أن حدث - فجأة - هرج ومرج بين الجموع المتزاحمة، وأخذ الجميع يهرولون إلى قبر المخلص نفسه. كان القداس اللاتيني قد انتهى وشيكًا، وبدأت صلوات القداس الروسي، ووجد أفيم نفسه مُنساقًا بين الجمهور إلى القبر الذي نحت في الصخر.

في هذه الأثناء، حاول أفيم أن يتخلص من رفيقه الحاج، فقد كانت الوساوس والشكوك تساوره، وقد هاجت عليه مشاعره لأنه كان يعتقد أنه يخطئ في حق هذا الحاج بفكره.. إلا أن صاحبه لم يشأ أن يفترق عنه، بل صاحبه إلى القداس الإلهي في القبر المقدس. حاولا أن يشقا طريقهما إلى المقدمة ولكنهما فشلا في ذلك، فقد تراصت جماهير المصلين، حتى تعذر على المرء أن يتزحزح من مكانه في أي إتجاه. ووقف أفيم وقد وجه نظره إلى الأمام، وراح يبتهل إلى اللّه.. ولكنه كان يتحسس جيبه من حين إلى آخر، ويتلمس حافظة نقوده. كانت الخواطر تتجاذبه من نشوة الصلاة، فيقلب الفكر في الأمر.. أحيانًا يظن أن الحاج كان يخدعه، ويظن - تارةً أخرى - أن لعله كان يقول الصدق.. وحتى في هذه الحال، قد يحدث له هو ما حدث لرفيقه من قبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرحة.. لم تتم

وقف أفيم يحملق في الهيكل الصغير، الذي يضم القبر المقدس، وأخذ يعد المصابيح الثلاثة والستين التي تضيء فوقه، وبينما يتطلع مشرئبًا فوق رؤوس الجماهير، رأى ما أثار الدهشة والعجب في نفسه. هناك تحت المصابيح، حيث تشتعل النار المقدسة، وفي مقدمة الجميع رأى أفيم رجلًا كهلًا، رأسه أصلع وسترته رمادية.. لا شبهه أنه أليشع بودروف بعينه..

ولكن أفيم فكر في نفسه قائلًا:

«إنه يشبهه تمامًا. ولكنه لا يمكن أن يكون أليشع، فهو لا يستطيع أن يسبقني لأن السفينة التي أبحرت قبل سفينتنا رحلت قبلها بأسبوع، ولم يكن في مقدوره أن يلحق بها. ثم إنه لم يركب في سفينتنا. لقد رأيت جميع الحجاج الذين على ظهرها..».

ولم يكد أفيم يفيق من دهشته، ويستبعد وجود أليشع، حتى رأى العجوز يصلي وينحني ثلاث مرات، سجد في المرة الأولى للّه، ثم طامن برأسه نحو الجانبين في إتجاه الأخوة، وعندما أدار رأسه إلى اليمين، تعرف أفيم على شخصيته، وقطع الشك باليقين، فقد كان هو بعينه أليشع بودروف بلحيته المتموجة السوداء، التي وخطها المشيب عند وجنتيه، وعند حاجبيه.. لقد رأى عينيه وأنفه وتحقق من ملامح وجهه التي يعرفها جيدًا.. نعم إنه هو بلا شك.

وأحس أفيم بسعادة غامرة، لأنه وجد صديقه مرة أخرى.. ولكن الدهشة كانت ما زالت تملك على وجدانه، فلا ينفك يسائل نفسه: «كيف نجح أليشع في الوصول قبله..».

ولكنه يعود فينظر إلى الشيخ ويقول:

«حسنًا فعلت يا أليشع.. انظر كيف استطاع أن يصل إلى مقدمة الصفوف.. لا بد أنه إلتقى بمن يرشده إلى هذا الطريق. عندما نخرج لا بد أن أجده.. أتخلص من هذا الرفيق المعمم وألتصق بأليشع لعله يرشدني إلى طريقة أصل بها إلى المقدمة أنا أيضًا..».

وثبت أفيم نظره لا يحوله عن أليشع حتى لا يغيب عن عينيه حتى انتهت صلاة القداس. وبدأت الجموع تتحرك كالموج الداهم، يتدافع الناس بالمناكب سعيًا إلى القبر حتى يقبلوه ويتبركوا بلمسه.. ودفعوا أفيم جانبًا، وأحس بالخوف يملك عليه نفسه ومد يده بسرعة يتحسس حافظة نقوده. أخذ يشق طريقه بصعوبة بالغة بين الحشود الكثيفة يريد الوصول إلى الخارج.. وعندما وصل إلى الفناء، تلفت في كل صوب عسى أن يجد صديقه أليشع.. وسنحت له الفرصة أن يبحث في داخل الكنيسة أيضًا.. دون أن يعثر له على أثر!! وفي

حوارس الكنيسة رأى الكثير من الناس، صفوفًا متباينة، يأكلون ويشربون النبيذ، ويقرأون وينامون. وبين كل هؤلاء لم يجد أليشع وهكذا عاد أفيم إلى الفندق، لا يخفى ما بنفسه من الضيق، وفي تلك الليلة أيضًا، لم يأت إليه الحاج ذو العمامة حسب عادته. حتى هذا أيضًا مضى دون أن يرد الروبل الذي اقترضه وترك أفيم وحيدًا.

في اليوم التالي، توجه أفيم مرة أخرى إلى القبر المقدس، وقد اصطحب معه رجلًا عجوزًا من ثاميوف كان قد تعرف عليه على ظهر السفينة حاول أن يصل إلى المقدمة إلا أن الجماهير كانت تدفعه إلى الخلف، ولهذا وقف إلى جوار أحد الأعمدة يصلي ويبتهل.. ثم بدأ يحملق بعينيه.. هناك تحت المصابيح.. وفي المقدمة.. وبالقرب من قبر السيد كان أليشع واقفًا وقد بسط ذراعيه، كما يفعل الكاهن أمام المذبح، ورأسه الأصلع يلمع بين أضواء الشموع.

وهمس أفيم لنفسه في إصرار:

«حسنًا، الآن لن أدعه يفلت من يدي..».

وتقدم يشق طريقه إلى الأمام، واستطاع أن يصل بالفعل إلى المقدمة.. ولكن لم يجد أليشع.. ولقد مضى بعيدًا.. وتكرر هذا المشهد في اليوم الثالث، حين بهت أفيم إذ رأى أليشع في أقدس مكان من القبر، وعلى مرأى من جميع الناس، وقد رفع ذراعيه وشخص بعينيه إلى السماء، كما لو كان يبصر شيئًا في العلاء. وأشعة الضوء تنكسر وتبرق على رأسه الأصلع..

وأعمل أفيم فكره واستقر على رأي راجح:

«لن يستطيع الهرب مني.. سأقف عند الباب وانتظر.. ولا يضِل أحدنا عن الآخر..

وذهب أفيم ووقف عند الباب إلى أن انصرم منتصف النهار، وعبر أمامه كل الحجاج الذي كانوا في داخل الكنيسة، ومع ذلك لم يظهر أليشع!

ظل أفيم في أورشليم ستة أسابيع، تمتع فيها بمشاهدة جميع المزارات: بيت لحم، وبيت عنبا، ونهر الأردن. ووضع في القبر المقدس رداءً جديدًا حتى يلفه به ذووه عند دفنه. وملأ زجاجة من ماء الأردن، وأخذ معه حفنة من تراب الأرض المقدسة، واشترى شمعة أوقدتها تلك الشرارة التي تنبثق من القبر المقدس في ليلة سبت النور، ونقش اسمه في ثمانية أماكن طالبًا من قارئيه أن يذكروه في صلواتهم، وأنفق كل ما معه من النقود بعد أن احتجز مبلغًا مناسبًا يكفي نفقات عودته.

ثم بدأ رحلة العودة، سيرًا على الأقدام إلى يافا، ومن هناك أبحر إلى أوديسا حيث بدأ طريق عودته الطويل إلى قريته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بركات في الطريق

واجتاز أفيم في عودته نفس الطريق الذي سلكه في رحلة الحج. وكلما تقدم في طريقه أحس أنه يقترب من بلدته، فتساوره المخاوف الأولى، عن الشئون التي تركها بين يدي ولده حتى يقوم بها في غيبته. ويتذكر المثل القائل "ما أكثر الماء الذي يضيع أثناء السنة" وقد يحتاج المرء إلى وقت طويل، وربما يقضي حياته كلها لكي يبني لنفسه بيتًا، ولكنه لا يحتاج إلى هذا الوقت الطويل إذا خطر له أن يهدم البيت.

كانت هذه الأفكار تشغل ذهنه، فيلح عليه القلق فيما إذا كان ابنه قد نجح - بدونه - في النهوض بتلك الأعباء.. كيف قضت الأسرة أيام الربيع؟ وكيف اعتنوا بالقطيع خلال أيام الشتاء؟ وتاقت نفسه إل معرفة ما إذا كان الكوخ قد تم بناؤه أم لا؟. وعندما وصل إلى أوكرانيا حيث افترق عنه أليشع في الصيف السابق، لم يصدق ما رأته عيناه. لقد تغير كل شيء حتى رفض أن يصدق أن السكان كما هم، لم يتغيروا. لقد اختفت كل صور المجاعة وآثارها، وبدأ على الناس أنهم يعيشون حياة الراحة والدعة.. لقد أعطتهم الأرض محصولًا طيبًا، واسترد الناس قواهم وعافيتهم، وانزوى في طوايا النسيان كل ما قاساه الناس من عنت وشقاء.

ثم وصل أفيم - في إحدى الليالي - إلى نفس المكان الذي تخلف فيه أليشع. وما كاد يدخل القرية حتى أسرعت إليه إحدى الفتيات في ردائها الأبيض، وقد انطلقت تجري نحوه من أحد الأكواخ وصاحت ترحب به:

«يا أبي.. يا أبي تعال إلى بيتنا..»

كان أفيم يريد مواصلة المسير، ولكن الفتاة الرقيقة تشبثت به ولم تدعه يمضي. وأخذت تجذبه، ضاحكةً، نحو الكوخ الذي وقفت على بابه امرأة وبجانبها صبي.. وأومأت المرأة إلى الضيف الذي تقتاده صغيرتها وهي تقول:

- تعال يا جدي، وادخل.. اكسر معنا خبزًا، وتناول العشاء ثم اقضِ ليلتك..

وهكذا دخل أفيم.. ثم خطرت في باله فكرة انبسطت لها أسارير وجهه

«لعلني أستطيع أن أستدل على أليشع، أو أجد خيطًا يوصلني إليه.. يُخيَّل إليَّ أن هذا هو الكوخ الذي عرج عليه يطلب جرعة من ماء..».

وأعانته المرأة على التخفف من الحقيبة التي يحملها على منكبيه، وقدمت له بعض الماء لكي يغتسل ثم دعته إلى المائدة حيث وضعت في متناوله كوبًا من اللبن وبعض الكعك والأرز.. ولم يجد أفيم بدًا من تقديم الشكر على حسن

صنيعها، ولطفها إلى أحد الحجاج، ولكنها هزت رأسها في شيء من الإيباء وهي تقول:

- لدينا من الأسباب ما يحملنا على الحفاوة بالحجاج. لقد كان أحدهم صاحب الفضل في إرشادنا إلى معنى الحياة. كنا نعيش بعيدًا عن معرفة اللّه، فصب علينا غضبه حتى بلغنا حافة الموت. في الصيف الماضي، يا سيدي، أصابنا المرض فأقعدنا حتى عن الحركة، ولم يكن لدينا لقمة نتبلغ بها أو نسكت بها بطوننا الجائعة.. كدنا نموت جوعًا، لولا رحمة اللّه التي تداركتنا، فأرسلت لنا رجلًا عجوزًا يشبهك فأمدنا بالمعونة... لقد أتى ذلك العجوز في أحد أيام الصيف القائظة يلتمس منا جرعة ماء، فهاله ما رأى من حال، فأخذته الشفقة بنا ومكث معنا لا يفارقنا.. وهبنا طعامًا لنأكل، وماءً لنشرب حتى تمكنا من الوقوف على أقدامنا.. ولم يكتف بهذا بل سدد ما علينا من ديون واسترد لنا أرضنا، ثم اشترى لنا عربة وحصانًا وتركهما لنا...

وهنا دخلت المرأة العجوز، فقاطعت المرأة الشابة التي كانت تسرد قصتها على أفيم، بقولها:

- في الحقيقة نحن لا نعلم هل كان ذلك الرجل إنسانًا أم ملاكًا من قبل اللّه - لقد أغدق علينا جميعًا من حبه، وشملنا كلنا بعطفه وإحسانه. ثم مضى عنا دون أن يبوح لنا حتى باسمه؟! ولذلك فنحن نصلي ولا نعلم عمن نطلب.. إني أتذكر كل شيء ماثلًا أمام عيني حتى الآن.. كنت أرقد هناك أنتظر الموت بين لحظة وأخرى، عندما دخل علينا رجل أصلع، ليس فيه ما يلفت النظر، دخل يطلب جرعة ماء. أما أنا - الخاطئة - فقد قلت في نفسي: «ما الذي دعا هذا الرجل إلى المجئ إلينا؟» ولكن انظر ما صنعه هو بنا!! ما كادت عيناه تقع على ما كنا نعانيه من بؤس وشقاء حتى أنزل حقيبته، في هذه البقعة بالذات، وفك أربطتها.

ولكن الفتاة الصغيرة قاطعت جدتها العجوز وقالت:

- لا يا جدتي.. لقد وضعها هنا أولًا، في وسط الكوخ، ثم رفعها على المقعد الخشبي الطويل..

ثم اشترك الجميع في مناقشة طويلة، تذاكروا فيها كل ما قاله لهم أو فعل من أجلهم.. أين كان يجلس، وأين ينام؟ وماذا قال لكل واحد أو واحدة منهم.. وعندما أرخى الليل سدوله، أقبل الفلاح إلى بيته وانضم إلى بقية أفراد أسرته، يروي كيف عاش الغريب معهم، ثم اختتم ذكرياته، وهو يمد بصره إلى الأفق البعيد ويقول:

«لو لم يقبل إلينا، لكان مصيرنا المظلم هو الموت في خطايانا وآثامنا. لقد كنا نتوقع الموت ونحن في أشد حالات اليأس المطبق، نجأر بالشكوى، ونتذمر بالسخط على اللّه والناس.. ولكنه أتى وساعدنا حتى نهضنا من كبوتنا، وعلمنا كيف نعرف اللّه، وأدركنا يقينًا أن الخير والحب مازالا في قلوب الناس.. فليباركه اللّه! لقد كنا نعيش كالبهائم، ولكنه جعل منا بشرًا».

وبعد أن انتهى أفيم من العشاء، أخذوه إلى مرقده وانصرفوا عنه إلى فراشهم وراحوا في سبات عميق.. ولكن النوم فارق عينيْ أفيم.. لم يستطع أن ينتزع أليشع من أفكاره.. بل راوده ذلك المنظر الذي تكرر أمامه ثلاث مرات في أورشليم، وهو يرى أليشع واقفًا يتضرع في مقدمة الصفوف.

ووجد نفسه يصارح نفسه:

«إذًا.. فقد سبقني فعلًا.. لقد زرت الأماكن المقدسة، هذا صحيح.. هل قبل اللّه هذا الحج مني، أم لا..؟ أما هو، فلا شك أن اللّه قد قبل حجته».

وفي صباح اليوم التالي، ودع أفيم أفراد الأسرة ولكنهم لم يدعوه يغادر البيت دون أن يزودوه ببعض الفطائر التي وضعوها في حقيبته. ثم انطلقوا إلى عملهم، ومضى هو في طريقه إلى بلده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللقاء

استغرقت هذه الرحلة من أفيم عامًا كاملًا، وأقبل الربيع التالي، الذي وصل في إحدى لياليه إلى بيته.. لم يكن ابنه في الدار، لأنه كان في الحانة. وعندما عاد إلى المنزل كان ثملًا مخمورًا ولم يجد أفيم بدًا أن يسأله ويحاسبه، فقد كانت كل الدلائل تشير إلى إعوجاج سلوكه، واستغلال حريته وسلطانه أسوأ استغلال أثناء غيبة أبيه. لم يصرف المال في وجوهه الصحيحة، بل بدده وأتلفه كما أهمل العمل إهمالًا تامًا وأخذ أفيم يوبخ ابنه توبيخًا شديدًا صارمًا، ولشد ما ساء في عينيه أن ابنه كان يجيبه في تمرد ووقاحة:

- ولماذا لم تبق معنا، وتشرف على كل شيء بنفسك؟ لقد غادرتنا وأخذت كل المال معك، ثم تأتي بعد ذلك كله تطلبه مني!!

واستشاط الرجل غضبًا فهبَّ واقفًا وصفع ابنه على وجهه وفي الصباح توجه أفيم إلى العمدة، يشكو إليه مسلك ابنه المنحرف، ولكنه بينما كان في طريقه إليه مرَ ببيت صديقه أليشع، وقد رأته زوجته واقرأته السلام وهي في فناء البيت ثم قالت:

- كيف حالك أيها العزيز؟ لعلك وصلت إلى أورشليم في أمن وسلام.

فتوقف أفيم عن السير وأجابها:

- نعم. الحمد للّه لقد وصلت إلى هناك، ولكن زوجك العجوز اختفى فجأة عن ناظري فلم أجد له أثرًا، ولكني شكرت اللّه إذ سمعت أنه رجع إلى بيته سالمًا.

وراق الحديث للمرأة، فاستطردت تقول:

- نعم.. لقد عاد.. رجع منذ زمن طويل.. رجع - فيما اعتقد - بعد عيد السيدة العذراء بقليل. وقد شكرنا اللّه كثيرًا على سلامته. في الواقع كان يُخيم على البيت جو من الكآبة والانقباض أثناء غيبته. إننا لا نتوقع ولا نريده أن يجهد نفسه بالعمل الآن، فقد مضت أيام شبابه وقوته. على أي حال، هو رب الأسرة، والبيت يزداد بهجة وهو فيه، حتى الولد فرح جدًّا بعودة أبيه الشيخ، لقد كان يردد دائمًا: «إن البيت مظلم كأن الشمس لا تدخله، ما دام أبي بعيدًا عنه..» لا شك أن البيت كان مُقبضًا بدونه، كلنا شغوف بالعجوز، وكلنا نخدمه ونعنى به بكل طاقتنا.

فسألها أفيم:

- وهل هو الآن في البيت؟

وحسب عادتها كانت تحب الحديث، فانتهزت الفرصة لتجيب:

- نعم، يا صديقي العزيز.. إنه مع النحل يجمع الخلايا، وهو يقول أن الخير كثير وفير هذا العام. لقد أعطى اللّه للنحل قوة، لا يذكر زوجي أنه رأى لها مثيلًا من قبل.. شكرا للّه أنه لا يجازينا حسب خطايانا.. هكذا يقول دائمًا.. اسمع يا جارنا العزيز، إنه سَيُسَرُ جدًّا لرؤياك.

وعبر أفيم الممر إلى الفناء ثم اجتازه إلى حيث كان أليشع مشغولًا بالمناحل وكان أليشع هناك، في سترته الرمادية، دون أن يلبس قناعًا على وجهه، أو قفازًا في يديه، يقف تحت أشجار البتولا وقد رفع عينيه إلى السماء، وبسط ذراعيه، ورأسه الأصلع يلمع.. تمامًا كما رآه أفيم في القبر المقدس في أورشليم. وقد تسللت أشعة الشمس خلال فروع الأشجار، لكي تحل عليه كألسنة من نار.. نفس المنظر الذي تراءى له هناك في الأرض المقدسة... وأخذت أسراب النحل الذهبية تحوم حول رأسه كأنها هالة من نور!

ووقف أفيم مشدوهًا، وقد انعقد لسانه فلم ينبس ببنت شفة، حتى قطعت الزوجة هذا الصمت تنادي زوجها:

- هو ذا صاحبك قد حضر.

واستدار أليشع، وقد أضاءت وجهه معالم البشر، وأقبل مهرولًا نحو أفيم، وهو يلتقط النحل من لحيته في رفق وهدوء. وأخذ يصافحه وهو يقول:

- طاب يومك يا صديقي.. طاب يومك يا عزيزي.. هل وصلت سالمًا؟

وأخذ أفيم يهز يدي أليشع في اشتياق وهو يقول:

- لقد قادتني قدماي هناك.. وقد أحضرت لك معي بعضًا من ماء الأردن.. لا بد أن تأتي إلى منزلي حتى أعطيك إياها.. ولكن إذا كان اللّه قد قبل جهدي..

وقاطعه أليشع قائلًا:

- حسنًا. شكر للّه.. الرب يعوضك عن تعبك.

وبعد لحظة صمت، عاد أفيم يقول:

- لقد كانت قدماي هناك.. أما روحي.. أو لعلها روحٌ أخرى كانت هناك فعلًا..

وأسرع أليشع يقول:

- إن هذا عمل اللّه وشأنه... دع هذا الأمر جانبًا.. إنه عمل اللّه..

وعاد أفيم يقول:

- في طريق عودتي.. تصور أني نزلت في نفس الكوخ.. الكوخ الذي تخلفتَ أنت فيه..

واضطرب أليشع وأجاب مقاطعًا إياه:

- إنها إرادة اللّه يا صاحبي.. إرادة اللّه. تعال يا صديقي واسترح قليلًا في داخل الكوخ فأقدم لك شيئًا من العسل الذي جمعناه هذا العام.

وهكذا حوَلَ أليشع دفة الحديث إلى الكلام عن شئون البيت. وندت عن صدر أفيم زفرة عميقة، وكف عن الكلام عن سكان الكوخ. ولم يذكر له كيف رآه في أورشليم. ولكنه أدرك الآن، أن أحسن طريقة لكي يحفظ عهده أمام اللّه، لكي يتمم مشيئة اللّه، أن المرء - ما دام حيًا - يحب قريبه كنفسه، ويصنع الخير للجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

عن الكتاب..

العهد
بداية الطريق
فراق...
مغامرة
المجاعة
الرحيل
العودة
رفيق السفر
تجارب الفكر
فرحة.. لم تتم
بركات في الطريق
اللقاء